

حياة نيتشه

الفكر والحياة

شيء واحد اتفق عليه كل من كتبوا عن نيتشه ، وأكدده هو ذاته في كتاباته ، وأعني به أن فلسفته قد امتزجت بحياته وأصبحت تكون قطعة منها ، وأنه يتفلسف بكيانه كانه ، وبوجوده الكامل ، ولا يتفلسف نظرياً ، أو يفكر في مشاكل تجريدية جامدة فقدت صلتها بالحياة . وهكذا كان نيتشه يمثل نوعاً فريداً من الفلاسفة ، نوعاً يجعل حياته في هوية مع فكره ، ويقضى على كل حد فاصل بينهما ، ولا يثق بأية مشكلة عقلية لا تسرى مع الحياة في تيارها ، ولا تنبع من أعماق شخصية من يفكر فيها .

ولسنا ندعى أننا سوف نخرج على هذا الإجماع ، ونقرر أمراً مخالفاً لما شهد به نيتشه ذاته ، وأكدده كل الباحثين عنه . غير أننا نود أن نوضح المعنى الحقيقي لهذا الاتفاق بين حياة الفيلسوف وتفكيره ، وأن نستخلص الدلالة الصحيحة لتلك الفلسفة التي تنبع عن الحياة ، وتتقلب معها في كل ما يطرأ عليها من تغيرات .

ذلك لأن القول بأن فكر الفيلسوف في هوية مع حياته ، وبأن كل الحدود الفاصلة بينهما قد أزيلت ، هذا القول لا يوضح الأمور كثيراً : فمن الممكن أن تكون حياة الفيلسوف سائرة في مجراها الطبيعي ، ويكون تفكيره تابعاً لهذه الحياة ، مستمداً أكله منها ، وبما اكتسبه من خبرات فيها . ومن الممكن أيضاً أن يكون تفكير الفيلسوف هو الأصل ، وتكون حياته كلها دائرة حول محور هذا التفكير : في الحالتين تكون حياة الفيلسوف هي وتفكيره شيئاً واحداً ، ولكن شتان ما بين الموقفين .

إن الشخصية الأولى شخصية ذات تجارب زاخرة ، وحياتها مليئة بالخبرات الواقعية التي تزيدها عمقاً على الدوام ، وتظل هذه التجارب والخبرات منطلقاً في طريقها الطبيعي ، لا يعوقها شيء ، ولا يحول بينها وبين الحركة الدائمة حائل ، ومن خلال هذه التجارب الممتلئة المتجددة ، ينمو تفكير الفيلسوف ، وعليها يتغذى كأي كائن حي ، فإذا ما تسنى لك أن تطلع على هذا التفكير مدوناً ، لما وجدته إلا ثمرة لتجارب الفيلسوف التي تستمد من الحياة التلقائية وتكتسب من الواقع المتجدد .

أما الشخصية الثانية فهي ضحلة التجارب ، صلتها بالواقع الحسي هزيلة ، وخبرتها بالحياة سطحية ، غير أن هذا الافتقار إلى التجربة الحية يعوضه عندها تجسيم للمشاكل الفكرية . إضفاء الحياة عليها . فالفكر في هذه الحالة منعزل عن الحياة ، زهداً فيها أو عجزاً عن مجاراتها . ولكنه إذ فقد صلته بما هو حي وواقعي ، يخلق حياة جديدة من فكره ، وينفخ في مشاكله العقلية من روحه ، فإذا بالحياة تنبض في هذه المشاكل ، وإذا بها كائنات حية يتعامل معها كما لو كان يتعامل مع الأحياء ذاتهم . وهنا أيضاً تكون حياة الفيلسوف وتفكيره شيئاً واحداً ، غير أن الأصل هنا هو الفكر . وما الحياة إلا صفة أضفها هو على هذا الفكر ، وظل تابع له .

وأحسب أن الناس إذا صادفوا مفكراً يوصف تفكيره بأنه قطعة من حياته ، وبأنه ساير هذه الحياة ولم ينفصل عنها ، كان أول ما يتبادر إلى ذهنهم هو المعنى الأول ، وظنوا أنهم لزاء شخصية استمدت فلسفتها من واقع حياتها الزاخر بالتجارب . وهذا بالفعل هو أول ما يطرأ على الأذهان كلما رُددت أمامها هذه العبارة العامة ، القائلة إن فلسفة نيتشه إنما استمدت من حياته ومن وجوده الشخصي . غير أن في هذا سوء فهم ينبغي أن نحذر الوقوع فيه . فنيتشه في واقع الأمر فيلسوف من ذلك النمط الآخر ، الذي جعل فكره حياً عن طريق إثراء الفكر وبعث روح الحياة فيه ، لا عن طريق إثراء الحياة واستخلاص الفكر من حكمة تجاربها . وهو لم يقف أمام الحياة وجهاً لوجه ، بل وقف

أمام أفكار ومشاكل أحيائها ذهنه ، وحلت لديه محل الواقع المباشر الذى نتعامل معه فى تجربتنا الحية . وكانت الفكرة الواحدة لديه قادرة على أن تبعث فيه الغضب والثورة أو الراحة والسرور ، وكل المشاعر التى لا تبعثها فينا عادة إلا المواقف الواقعية الحية . وهنا نجد أنفسنا إزاء نتيجة غريبة كل الغرابة : ذلك لأن هذا المفكر الذى كان يسخر من كل فيلسوف تجرىدى ، ويؤكد أن أحط صور الإنسان وأكثرها تشويهاً هى صورة « الإنسان النظرى » — هكذا المفكر نظرى بدوره ، تجرىدى هو الآخر ، وتفكيره إنما هو وجه من أوجه نشاط عقله الخالص . . . ألم نقل إن تجاربه الحية هزيلة ، وإن حياته كلها كانت تدور حول محور الفكر ، الذى هو أساسها ، وهو الذى يعطيها معناها ؟ وماذا يكون الإنسان النظرى ، إن لم يكن إنساناً تتلون حياته بلون مشاكله العقلية ، وتدور كلها حول مركز واحد ، هو الفكر المنفصل عن الواقع ؟ . . .

إن نيتشه قد وجه نقده اللاذع إلى أولئك الذين يتفلسفون بين جدران أربعة ، وعلى كرسي وثير . . . فأين كان يتفلسف هو ؟ ألم يكن أكثر الناس عزلة وتفرداً ؟ ألم تكن حياته كلها تسير فى طريق موحش ، يزداد بعداً عن الناس بالتدريج ؟ ألم يكن يفخر بانطوائه ، وبترفعه ؟ فى أى شئ يفترق إذن عن تلك العقول التى كانت تنحصر بين أربعة جدران ، وتحمى فى جو مفارق لواقع الناس ؟ تلك هى النتيجة الغريبة التى ينهى إليها تحليلنا السابق . ولكن أكان نيتشه بحق متناقضاً مع ذاته إلى هذا الحد الصارخ ؟ وهل كان هو الآخر إنساناً نظرياً له نفس الصورة المقيتة التى حمل عليها ونفر منها ؟ الحق أننا لا نهدم إلى إثبات ذلك ، ولاندعى أن طريقة نيتشه وطريقة كنت Kant فى التفكير تنتمي إلى نمط واحد ، بل إن اختلافهما الأساسى أمر مشاهد لا يحتاج إلى دليل . فكيف نخرج إذن من هذا الموقف المحير ، الذى نرى فيه نيتشه من جهة شبيهاً بالمفكرين النظريين ، لترفعه التام على كل ما ينتمى إلى واقع الناس بسبب ، ونراه من جهة أخرى مختلفاً عن المفكرين النظريين ، بما يضيفه على مشاكله من حركة دائمة وانفعال حى ؟

إن حل الإشكال إنما يكون في تلك التفرقة التي وضعناها من قبل بين نوعين من التفكير المرتبط بالحياة : نوع يرتبط بالحياة المليئة الزاخرة ، التي تتوالى تجاربها لتكسب التفكير عمقاً مستمداً من خبرة عينية واقعية ، ونوع تنحصر حياته في مشاكله ذاتها ، ويجمد هذه المشاكل ليجعل منها عناصر كاملة للحياة . هذا النوع الأخير هو الذى ينتمى إليه نيتشه ، وهو نوع إذا تعمقنا في تحليله وجدناه يحتل موقعاً وسطاً بين التفكير النظرى الخالص ، والتفكير العيى الحى . فهو نظرى لأن العالم الذى يحيا فيه هو عالم العقل ، ولكنه أيضاً عيى ، لأنه لا يتأمل مشاكله بتلك النظرة الهادئة الباردة التي يتأملها بها المفكر النظرى الخالص ، ولا يشاهد أفكاره كما يشاهد المرء عرضاً مسرحياً لا تربطه بما يجرى فيه أية صلة عميقة . وإذن ، فإن شئت أن تجرى مقارنة بين كنت ونيتشه ، لكان لزاماً عليك أن تنفى عن العلاقة بينهما صفة التضاد الكامل ، إذ هما معاً فيلسوفان يتعاملان مع مشاكل عقلية صرف يستمدان . ولا تفكيرهما من حياة مليئة وتجارب واقعية عميقة . وكل ما فى الأمر هو أن أولهما يتأمل مشاكله بعقل محايد ، ويشاهدها وهو فى موقف المتفرج ، أو الحكم الذى يلاحظ عن بعد دون أن يتدخل فى الصراع ، أما الآخر ، فهو طرف أصيل فى ذلك الصراع ، وهو مندمج فيما يحاول أن يحله من المشاكل على نحو تصبح معه هذه المشاكل هى وحدها قوام حياته . ومن جهة أخرى ، فإذا أجرينا مقارنة بين تفكير نيتشه ، وبين مفكر ينتمى إلى ذلك النمط الآخر ، الذى توجه حياته المنطقة تفكيره وتحل له مشاكله ، لوجدنا أن حياة نيتشه لم تكن هى التى تقود تفكيره ، بل كان تفكيره هو الذى يقود حياته . وبينما يكون فى وسعنا ، فى الحالة الأخرى ، أن نلقى ضوءاً ساطعاً على الفكر إذا درسنا الحياة ، فإننا فى حالة نيتشه نستطيع — على العكس من ذلك — أن نفهم كل تفاصيل الحياة إذا درسنا الفكر .

ويجمل القول إن تلك الهوية القائمة بين الحياة والفكر عند نيتشه ، لا تعنى أن تفكيره يستمد من حياته ، وإنما تعنى أن حياته هى التى تستمد من تفكيره . هذه الحقيقة الأولى ، التى حرصنا على إيضاحها فى مسهل حديثنا عن حياة

نيتشه ، ترسم لنا المنهج الذى ينبغى أن نتبعه فى دراسة هذه الحياة . فالوقائع الخارجية فى حياة نيتشه قليلة ، وليست لها أهمية خاصة . وأهم وقائع تلك الحياة تترد فى نهاية الأمر إلى مشاكل فكرية . وعلى ذلك ، فسوف نمر سريعاً بتلك الحوادث الخارجية ، حتى نفصح المجال لبحث المشاكل الحقيقية التى تحكمته فى حياته ، وطبعت فلسفته كلها بطابعها الخاص .

وقائع حياته :

فى أواسط القرن التاسع عشر ، وعلى التحديد فى ١٥ أكتوبر من عام ١٨٤٤ ، ولد نيتشه فى ريكن Rœcken وهى بلدة صغيرة قرب ليبستج . وأهم ما ينبغى أن نذكره عن أسرته أن أجداده لأبيه ، أعنى عائلة نيتشه ، كان معظمهم من رجال الدين ، وكذلك تنحدر أمه من أسرة إيلار Ehler وهى بدورها أسرة شغل كثير من أفرادها مناصب دينية . وهكذا كان الدين يلعب دوراً أساسياً فى طفولة ذلك الذى أسمى نفسه « عدو المسيح » ، والذى كرس جهده حياته ليوجه إلى الروح الدينية أعنف نقد تعرضت له خلال ألقى عام . ويبدو أن وفاة أبيه وهو فى سن الخامسة جعلته يرسم له صورة أسطورية ، ويمتدح فيه صفات لا شك أنه لم يلمسها فيه عن كثب ، إذ لا يعقل أن يكون قد حلل شخصية أبيه وهو دون الخامسة ! وعلى أية حال ، فقد عاش نيتشه بعد وفاة أبيه فى بيئة نسائية خالصة ، ولابد أن هذه البيئة لم تكن تروق له ، إذا حكمنا على الأمر فى ضوء حملة نيتشه العنيفة على المرأة فيما بعد .

وفى عام ١٨٥٨ التحق نيتشه بمدرسة بفورتا Pforta ، ثم غادرها إلى جامعة بون Bonn بعد ست سنوات . وعندما انتقل أستاذه فى اللغويات ، ريتشل Ritschl إلى ليبستج ، تبعه نيتشه إليها . وخلال تلك الفترة بدأ اتجاهه يتباور فى دراسة اللغويات والآداب الكلاسيكية ، وأخذ ينصرف عن اللاهوت ، بعد أن كان فى الأصل يتتوى التخصص فيه . وظل نيتشه فى الجامعة أربع سنوات ، تخللها فترة خدمة عسكرية انتهت بمجاذبة . ومن العجيب أن يُختار

نيتشه . في نفس العام الذي أنهى فيه دراسته الجامعية ، أستاذاً لفقهِ اللغة في جامعة بازل ، بعد توصية من أستاذه ريتشل ، الذي وصفه لدى المستولين هناك بأنه عبقرى . وهكذا بدأت مرحلة شاذة في حياة نيتشه ، هي مرحلة الأستاذية الجامعية .

وفي هذه الفترة اهتم نيتشه إلى مصدرين أساسيين من المصادر التي استقى منها تفكيره ، ودارت فلسفته حولها . إما بالعرض أو بالنقد ، وأعنى بهما شوبنهاور Schopenhauer ، وفاجنر Wagner . أما شوبنهاور ، فسوف يتسع المجال لبحث مدى تأثيره في نيتشه خلال بحث الآراء الفلسفية لهذا الأخير ، وأما فاجنر ، فسوف نفرده جزءاً خاصاً من هذا العرض لحياة نيتشه .

وحين نشبت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا . ساهم نيتشه فيها أولاً ، فلم يغد منها سوى سلسلة من الأمراض التي انتقلت إليه بالعدوى من الجنود المصابين وظل يقاسى منها طوال حياته . وكان نيتشه في أول الأمر متحمساً لبنى وطنه ، ولكنه حين أدرك أن الألمان هم الذين بدأوا العدوان ، حمل على هذه الحرب ونتائجها ، وعلى نمو روح التعصب القومى للألمان . واحتقارهم للفرنسيين ، الذين كان نيتشه دائماً الإعجاب بهم .

ولم يكن نيتشه متحمساً حين عاد لمتابعة إلقاء محاضراته في الجامعة . ذلك لأن محاضراته لم تاق النجاح الكافى ، بل إن أبحاثه الفيلولوجية المختلفة في تلك الفترة لم تصادف اهتماماً كبيراً ، وكذلك الحال في أول كتاب له ، وهو « ميلاد المأساة من روح الموسيقى » . وبدأت وطأة الأمراض تشد عليه ، مما جعله يتوقف في فترات منتظمة عن العمل بالجامعة .

ويبدو أن نيتشه كان في هذه الفترة يوفى ديناً لأساتذته ، ففيها كتب عن شوبنهاور ، وعن فاجنر ، وعن بعض معاصريه ، في تلك المجموعة التي أطلق عليها اسم « خواطر في غير أوانها » ، فضلاً عن الكتاب السابق الذى ألفه متأثراً بفاجنر .

على أنه حين بدأ ينقطع عن الجامعة ، ويطوف أرجاء إيطاليا وسويسرا ،

كان قد تجاوز مرحلة التأثير المباشر بشوبنهاور وفاجنر ، وبدأت فترة من التأليف العقلى النقدى ، ظهر فيها تحرره بوضوح ، وبدأ فيها بوجه نقده إلى كل مقولات العصر ، فظهر له كتاب « أهور إنسانية . إنسانية إلى أقصى حد » فى جزأين بدأ الأول فى سنة ١٨٧٦ وانتهى من الثانى فى سنة ١٨٧٩ . وفى العام التالى ، وفى جو فينيسيا المنحدر ، كتب نيتشه « الفجر » . ثم بدأت فترة من التأليف الخصب ، ظهر له فيها العلم المرح (١٨٨٢) و « هكذا تكلم زرادشت » (١٨٨٣ - ١٨٨٥) و « بمعزل عن الخير والشر » (١٨٨٥) و « أصل نشأة الأخلاق » (١٨٨٧) . وفى خلال كل ذلك ، كان يعد مواد كتابه الأكبر ، الذى كان ينوى فيه تدوين خلاصة فلسفته بطريقة منهجية منظمة . والذى لم تتح له فرصة إتمامه وتنسيقه ، فنُشر كما تركه ضمن مؤلفاته المختلفة . وأعنى به كتاب « إرادة القوة » (١٨٨٤ - ١٨٨٨) . وحتى العام الأخير من حياته الواعية ، ظل نيتشه يؤلف بغزارة ، فأخرج رسالتين عن فاجنر . هما قضية فاجنر ، ونيتشه ضد فاجنر . وانتهى عهده بالتأليف بكتاب « هوذا الرجل ! Ecce homo » الذى عرج فيه على شخصيته هو ، فتناولها هى وكتاباته بالتحليل ، وكأنه لم يشأ أن ينتهى من التأليف دون أن يعرض على الناس رأيه فى نفسه .

وعندما وصل تفكيره إلى هذه القمة ، وبلغ فى نقده أقصى الحدود التى يمكن ذهنه أن يبلغها ، لم يقوَ عقله على المضى فى طريقه ، فإذا بأعراض الجنون الحقيقية تظهر عاياه . فى ديسمبر سنة ١٨٨٨^(١) وصلت منه إلى أصدقائه خطابات بإمضاء « نيتشه - قيصر » . وتلقت كوزيما ، زوجة فاجنر . خطاباً منه يقول فيه « أريان - إننى أحبك - ديونيزوس » (وهو اعتراف ستفسره فيما بعد) . وبينما كان يسير فى شوارع قورين ، شاهد فرساً يضربه صاحبه ضرباً أليماً ، فألقى بنفسه عليه ليحميه ، ثم سقط على الأرض صريع الجنون . وقضى نيتشه ما يقرب من اثنى عشر عاماً فى فيمار Weimar بعيداً كل البعد عن

(١) أصيب نيتشه فى عام ١٨٨٩ بنوبة حادة من الشلل الجنونى العام of general paralysis the insane ومن أعراض هذا المرض هذيان العظمة .

عالم العقلاء . إلى أن مات في ٢٥ أغسطس سنة ١٩٠٠ .
ومن الظواهر المؤسفة أن جنون نيتشه الأخير قد استغل أسوأ استغلال ،
فذهب بعض الكتاب إلى أن مؤلفاته كلها تتسم بطابع الجنون ، وأن اللوثة العقلية
تظهر فيها كلها - بدرجات مختلفة - منذ البداية . وليس هناك أدنى شك في أن
حياة نيتشه لو لم تكن قد انتهت على هذا النحو ، أعنى أو كانت قد انتهت مثلاً
بمحادثة وقعت له في عام ١٨٨٨ . لما خطر هذا الانهزام على بال أحد . ذلك لأن
البحث الموضوعي الدقيق لكتابات نيتشه لا يؤدي إلى أى تأكيد لهذا الادعاء
الباطل . وكل ما في الأمر هو أن خصائصه النفسية ، التي كانت تنعكس
بوضوح على كتاباته ، كانت ذات طابع فريد - ومن من كبار الكتاب أو
الفنانين لم يكن له طابع نفسى فريد ؟ إن العزلة القاتلة التي عاش فيها نيتشه
قد صبغت أساوبه بصبغة خاصة ، وشعوره بالوحدة قد أضفى على كتاباته نوعاً
من الرفع والتعالى ، غير أن هذا كله ليس جنوناً على الإطلاق ، وما هو إلا تعبير
عن الخط النفسى الخاص الذى ينتمى إليه نيتشه ، وهو نمط مألوف بين العقلاء ،
بل بين الكثيرين من أعمق العقلاء تفكيراً .

والحق أن المرض بوجه عام كان يؤثر دائماً في نيتشه تأثيراً عكسياً ، أعنى أنه
كلما اشتدت عليه وطأة المرض ، كان يدعو إلى إنسانية سليمة صحيحة ، وكانت
نعمة الصحة والقوة تزداد وضوحاً في كتاباته . قد يكون هذا تعويضاً ، ولكنه
لا يؤثر مطلقاً في قوة الدعوة وروعة الهدف ذاته .

بل لقد كان نيتشه يحاول أن يُدخل أمراضه ، حتى أكثرها ارتباطاً بالناحية
العضوية ، في عداد الظواهر الواعية ، ويدرجها ضمن عناصر حياته الشعورية ،
فلا يرى المرض « سبباً » لاتجاهات معينة يتبعها في كتاباته ، بل « نتيجة » لهذه
الاتجاهات^(١) . ومع اعترافنا بمبالغته في هذا الحكم المطلق ، فإننا نستطيع أن
نجد له مع ذلك مبرراً فيما قلناه من قبل ، من أن حياة نيتشه كلها كانت تدور

(١) « هو ذا الرجل » : القسم الأول والثاني من الفصل الأول « لم كنت حكيماً إلى هذا الحد ؟ »
(انظر قائمة مؤلفات نيتشه في بداية القسم الخاص بالنصوص المختارة) .

حول فكره . وأن مشاكله الفكرية هي عناصر هذه الحياة ، وهي أشخاصها ، وهي التي كان في وسعها أن تعلو أو تهبط بها . فمثل هذا الشخص الذي كانت مشاكله الفكرية قادرة على أن تثير فيه مختلف الانفعالات التي تثيرها فينا المواقف الحية ، لا يستبعد أن تؤدي به هذه المشاكل ذاتها — في بعض الأحيان — إلى المرض أو الصحة . وفي هذه الحالة يكون المرض نتيجة لفكره الواعي ، لا سبباً في توجيه ذلك الفكر في اتجاه معين . ولنضرب لذلك مثلاً : ففي الفترة التي دعاه فيها فاجنر إلى حضور أعياد بايرويت Bayreuth^(١) . والتي كان نيتشه فيها قد بدأ يكفر بفن فاجنر . كان يشعر دائماً بغثيان وصداع أليم . وكثيراً ما كان يعتقد عن الحضور لمرضه . وليس من المستبعد أن تكون هذه الأعراض ذاتها — في مثل هذه النفسية الحساسة الشفافة — « نتيجة » لتقزز عقلي بدأ يشعر به نحو أعمال فاجنر . لا سبباً له . بل إن في وسع المرء أن يمتضى إلى ما هو أبعد من ذلك فيرى في جنونه الأخير تعبيراً آخر عن هذه الظاهرة . ذلك لأن الحياة التي تتخذ كل عناصرها من مشاكل فكرية صرف ، لا بد أن تعجز عن المضى في طريقها إذا وصلت هذه المشاكل إلى الحد الذي لا يمكنها أن تتجاوزه . والحق أن نيتشه في نهاية فترة تفكيره الواعي ، كان قد وصل في تفكيره إلى حد لا يستطيع أن يمتضى بعده خطوة واحدة : فهو قد حال نفسه : وحياته . تحليلاً عميقاً ، ولخصها كلها في كتبه الأخيرة . وهو قد وصل في تفكيره إلى النقطة التي لا يكاد المرء يتصور بعدها مزيداً بالنسبة إليه : فهو يقف الآن ضد المسيح . وهو يمثل الدعوة الإيجابية إلى الحياة في مقابل الدعوة السلبية إلى التخلي عن الحياة . وحين تصل المشاكل الفكرية — أعني عناصر حياته — إلى نقطة التوتر هذه . يكون الانفجار أمراً محتوئاً — وهكذا كان الجنون .

وعلى هذا النحو يبدو الجنون « نتيجة » منطقية لتطور لا بد منه .

ولسنا ندعي أن هذا التفسير هو وحده الصحيح ، أو أنه يعالج كل الوقائع :

(١) مدينة في ولاية بافاريا حيث شيد لودفيج الثاني ملك بافاريا مسرحاً خاصاً لأداء مسرحيات ريشارد فاجنر الذاتية .

ولكنه لا يبدو مستحيلاً إذا فُهمت حياة نيتشه على النحو الصحيح : حياة لا قوام فيها إلا للمشاكل الفكرية ، ولا يستطيع أن يرتفع بها شيء أو يهبط بها شيء ما عدا الأفكار .

وفي ضوء هذه الفكرة ذاتها سوف ندرس بشيء من التفصيل ما نعتقد أنه الواقعة الأساسية في حياة نيتشه — وهي بطبيعة الحال واقعة فكرية بدورها — وأعني بها علاقته بفاجنر . ففي هذه العلاقة سوف نجد تأييداً آخر لما نذهب إليه من تركيز حياة نيتشه حول مشاكله العقائدية وحدها ، إذ أن تقاليد هذه العلاقة ، وما نجم عنها من سعادة أو شقاء أحس بهما نيتشه خلال حياته ، إنما كانت تخضع لنظرة « عقلية » خاصة عند نيتشه ، بحيث لا تبدو تلك الواقعة الرئيسية في حياته إلا على صورة مشكلة فكرية فحسب .

نيتشه وفاجنر :

في نوفمبر سنة ١٨٦٨ . وفي خلال إقامة قصيرة لفاجنر في لينتسج ، قيل له إن هناك شاباً ألمانياً شديد الإعجاب بموسيقاه ، يحفظ مقطوعات عديدة من إنتاجه الأخير (في ذلك الوقت) وهو « أساطين الطرب Die Meistersinger » ، فأبدى فاجنر رغبته في مقابلة هذا الشاب المتحمس له . وفي الثامن من نوفمبر ، تقدم ذلك الشاب للمقابلة وصافحه ذاكرةً اسمه « فريدريش نيتشه » .

في تلك الفترة . كان نيتشه في «سهل حياته العقلية . يشق طريقة بعزمه في الرابعة والعشرين ، أما فاجنر . فكان قد اقترب من نهاية حياته الفنية ، وأتم التعبير عن ذاته أو كاد . ولم يعد يعرف الهجوم العنيف ولا الثورة الموحجة . بل انتهى إلى مدوء ساخر لا يخاو من استسلام ، عبرت عنه « أساطين الطرب » أحسن تعبير . كان الأول لم يزل مغموراً ، لا يعرفه أحد ، وإن يكن شديد الثقة بمستقبله ، أما الثاني فكان اسمه على كل لسان ، ومجده الماضي يكفيه في مستقبل حياته .

على أن التفاهم سرعان ما ساد بين الرجلين ، ولم تكن الموسيقى وحدها هي

مصدره - بل جمع بينهما الإعجاب المشترك بفلسفة شوبنهور - وبتفسيره الفنى للحياة وللعالم . وهكذا تقابل الرجلان مرة أخرى فى تريبشن Trübschen فى العام التالى ، وتكررت مقابلاتهما فى ذلك المكان الذى اتخذته فاجنر مهبطاً لوجيه . ووجد نيتشه فى فاجنر فناً أحياناً شوبنهور النظرية وحققها عملياً ، ووقفت لديه الموسيقى مع الفكر جنباً إلى جنب ، واجتمع الشعر والنغم فى دراماته الموسيقية ، على نحو يذكره بما كان فى « التراجيديا » اليونانية من فن متكامل . وهكذا كتب نيتشه إلى صديقه إرفين روده Erwin Rhode يقول « ... إن ما أتعلمه وأراه وأسمعه وأعقله هنا شيء يفوق الوصف . ولتصدقنى إذا قلت لك إن شوبنهور وجيته ، وإسخيلوس وبندار ، ما زالوا أحياء » . ومن جهة أخرى أعجب فاجنر وزوجته كوزيما بذلك الشاب المتحمس ، ووجداه يفوق فى ثقافته وعلمه كل من دخل فى دائرة معرفتهما ، وأدرك فاجنر أنه فى حاجة إلى مثل هذه العقاية الفتية المتحمسة ، التى تستطيع أن تأتى بأقوى الدعامات لآرائه الفنية فى ميدان الفلسفة والفكر . وهذا بالفعل هو ما حدث فى بداية الأمر : فقد ألف نيتشه كتابه الأول « ميلاد المأساة من روح الموسيقى » ، محاولاً فيه أن يهتدى إلى الصلة بين الدراما الفاجنرية والمأساة الإغريقية ، ويدعو فيه إلى نهضة متكاملة فى الحياة الحديثة ، يؤدى فيها فن فاجنر وفلسفة شوبنهور الدور نفسه الذى أداه فن إسخيلوس فى حياة اليونان القديمة ، ويحلم بعصر تسوده الغريزة المطلقة ، وتخفت فيه أضواء العقل الخالص . الذى أضفى على حياة الإنسان لوناً باحثاً .

وبقدر ما لقي الكتاب فى دائرة فاجنر من ترحيب ، فإنه أحمق فى أفت أنظار الباحثين خارج هذه الدائرة ، إذ تجاهله النقاد نجاحاً يكاد يكون تاماً ، ووصفه القايون الدين انتبهوا إليه بأنه « ستور »^(١) منوه لا وحدة فيه ولا ارتباط . وهذا ما كان يحس به نيتشه ذاته ، حين صرح فى كتاب له إلى روده ، فى سنة ١٨٧١ بأنه يخشى « ألا يقرأ علماء اللغة ذلك الكتاب لما فيه من موسيقى ،

(١) ستور (Sturm) (قصود) لحظة حركية مدورها الأساطير اليونانية فى شكل حيوان نصنه الأعلى شبه الإنسان ونفسه الأسمى شبه الحمار

وألا يقرأه الموسيقيون لما فيه من علم لغة ، وألا يقرأه الفلاسفة لما فيه من موسيقى وعلم لغة ! » .

على أن التفاهم بين الرجلين لم يدم طويلا ، وما كان له أن يدوم . وكم قيل في تفسير القطيعة بينهما من تعليقات ، وتعصب كل باحث لرأيه الخاص ، ظاناً أنه قد أتى بالتعليل الأوحـد . ولكن الواقع أنه لا يُستبعد ، إذا كنا بصدد شخصية معقدة كشخصية نيتشه ، أن يكون لكل من هذه التعليقات نصيب من الصحة . وأغرب هذه التعليقات ، هو التعليل النفسى . فقد تبين فى نهاية الأمر ، وفى الوقت الذى وقف فيه نيتشه على حافة الجنون ، أنه كان يحب كوزيما زوجة فاجنر ، وتصور أنها هى أريان ، وهو ديونيزوس ، فى الأسطورة اليونانية ، وكتب إليها : أريان - إننى أحبك ! ولم تكن إشارته الروزية فى كتبه السابقة عن أريان وديونيزوس مفهومة من قبل ، ولكنه حين أقلت منه زمام عقله الواعى ، وكشف عن هذا الحب الصامت القديم ، قد أوضح معنى تلك الإشارات على نحو لا يدع مجالا للشك فى أن حبه لكوزيما قد لعب دوراً هاماً فى حياته النفسية . فإذا أضفنا إلى ذلك قوة النزعة الذاتية لدى نيتشه ، وهى النزعة التى تجعله يحكم على العالم وعلى الآخرين تبعاً لشعوره الخاص نحوهم ، لوجدنا أنه ليس من المستبعد على الإطلاق أن تكون كراهيته التالية لفاجنر تعبيراً غير مباشر عن حبه لزوجته ، أو إحساساً منه - كما صرح فى بعض الأحيان - بأن فاجنر لا يستحق هذه المرأة التى لم يصادف بين النساء من تعادها ذكاء وجراًة . ليس لنا إذن أن نرفض هذا التعليل ، إذ نهض به فى كتابات نيتشه ذاتها شواهد قاطعة . ولكن ليس لنا فى نفس الوقت أن نعهـد التعليل الوحيد ، فقد كان لابد من عوامل أخرى تتضافر مع عامل التطاع الخفى إلى كوزيما ، لتزوى بنيتشه إلى حملته العنيفة على فاجنر . وكان لابد من مبررات عقلية أخرى ، يستطيع أن يصرح بها على الأقل ، أو يستطيع أن يبرر بها لعقله الواعى هذا التغير الذى طرأ على شعوره نحو فاجنر . فلمض إذن فى بحثنا ملتصين تعليقات أخرى لهذه القطيعة .

في الوقت الذي وصل فيه فاجنر إلى قمة المجد ، ونجح في بناء مدينة موسيقية كاملة على النحو الذي تخيله طيلة حياته في بايرويوت Bayreuth ، وبدأ يحقق من المشروعات ما كان يبدو له قبل ذلك خيالاً واهماً . كتب نيتشه في الجزء الرابع من كتابه « خواطر في غير أوانها » ، مقالاً لخص فيه كل ما كان يجذبه إلى فاجنر من قبل ، هو مقال « رتشارد فاجنر في بايرويوت » . والحق أن أحداً لم يمدح فاجنر ولم يمجده مثلما فعل نيتشه في هذا المقال . ويبدو أن نيتشه كان ينبه فيه فاجنر إلى ما كان ينتظره منه : فقد كان ينتظر تقدماً شاملاً وإصلاحاً عاماً في كل أوجه الحياة البشرية . من أخلاق وسياسة وعلاقات اجتماعية ، إذ أن المسرح صورة مصغرة للمجتمع بمختلف مجالاته . وفيه تُقدم لمشكلة الحياة حلول أو أحسن اختيارها لكان أثرها على الإنسانية كلها عظيماً . وهكذا تستطيع بايرويوت أن تعيد لنا عهد الأولب ، ويستطيع العبقري الذي شادها أن يخاطبنا بلغة شاملة لا توجه إلى جماعة أو شعب معين ، بل إلى البشرية كلها . . . على هذا النحو سار نيتشه في مؤلفه هذا عن فاجنر . ولكن هل كان هذا كله مدحاً فحسب ؟ الحق أنه ، كما قلنا ، تعبير عما يتوقعه نيتشه من فاجنر ، لا عما قام به فاجنر بالفعل . والدليل على ذلك أنه في نفس الوقت الذي كان فيه فاجنر يحتفل بأعياد بايرويوت الأولى ، كان نيتشه قد انطفأت حماسه وتبحر إعجابه .

ذلك لأن نيتشه حين اهتدى إلى ذاته . وعرف الطريق الذي يتعين عليه أن يسلكه ، أدرك أن فاجنر عاجز تماماً عن أن يقدم إلى البشرية شيئاً مما يريد هو . لقد كان نيتشه يريد انقلاباً في الأخلاق ، وفي الفكر ، وفي الفن ، وفي كل ما يقدره الإنسان الحديث من قيم . فأين فاجنر من كل هذا ؟ لقد شاهد نيتشه بعض حفلات بايرويوت ، فلم يجد إلا مسرحاً ذا جدران أربعة ، وستاراً يفتح من الجانبين ، وعازفين مخفيين ، وموسيقى ممتزجة بالشعر ؛ وهذه كلها تجديدات فنية لا شك فيها ، ولكن أتبداً من هنا نهضة الإنسان الحديث كما أرادها نيتشه ؟ وأين هم رهبان الفكر الذين كان نيتشه يتصور أنهم سيفقدون خاشعين إلى محراب

الفن ؟ أين ذلك الصمت المقدس الذى طالما حلم به . من تلك الجلبة والضوضاء وذلك الغدو والرواح ؟ أين بخور معبد الفن من رائحة الخمر والدخان وعطور النساء التى حفل بها مسرح بايرويت ؟ لقد انتهى نيتشه من زيارته لبايرويت بنتيجة واحدة ، هى أن من المحال أن تشع شمس الإصلاح من ذلك الأوبل الزائف . أو أن تبعث الحضارة الديونيزية من بعد حفل لاه كذلك الذى وضع فيه فاجنر كل آماله ! ومنذ هذه اللحظة ، ينس تماماً من أى إصلاح يأتى عن طريق فاجنر .

وهكذا أصبح الطريق ممهداً للاتصال التام . ولم يبق إلا أن يعلم نيتشه أن فاجنر ليس عاجزاً عن باوغ هذه الإصلاحى فحسب . بل إنه يسعى إلى هدف مضاد له . وهذا ما أدركه نيتشه أخيراً : فقد تقابلا بعد بايرويت عدة مرات ، إلى أن كان يوم تريضاً فيه معاً على الساحل فى سورنتو Sorrento بإيطاليا ، وأخذ فاجنر يشرح له أهم الموضوعات التى تشغل ذهنه فى ذلك الحين . وهى الدراما الموسيقية الجديدة « پارسيفال » . فإذا بها عمل يقدمه فاجنر إلى الكنيسة راجياً منها المغفرة والصفح فى نهاية حياته ، وإذا به يقول إنه يجد فى فكرتها هذه لذة لا يجدها فى أعماله السابقة التى كان بعضها بصطيغ بصيغة الإلحاد . وتبينت الحقيقة لنيتشه بوضوح : فيها هو ذا فاجنر يتبدى أمامه نائباً مكفراً ، يردد آلام المسيح وعذابه . ويركع تحت الصليب . فى الوقت الذى أراده فيه ثائراً يمجّد الحياة ويقلب القيم . بل إن فى الأمر شيئاً أخطر من مجرد كرن فاجنر مسيحياً ، إذ أن نيتشه على كل حال يحترم انسيحى المخلص ، ولكن الذى آلمه أن يجد فاجنر قد انقلب وتدهور إلى هذا الحد . وعلى أية حال فقد ظل نيتشه صامتاً فى ذلك اليوم . وحين انتهى فاجنر من حديثه ، خطا نيتشه بعيداً عنه . وانصرف دون أن يجيب . ولم يره بعد ذلك أبداً .

والحق أنه كان من المحال أن يسود التفاهم بين فاجنر وبين ذلك الذى أراد أن يكون « عدو المسيح » وأن يتخذ كل ما يمت إلى المسيحية بسبب ... فالروح الدينية كانت تنيره على الدوام . وما كانت حرية الأخلاق السائدة ، التى كرس

نيتشه كتباً بأسرها لنقدها ، إلا أنها في أساسها متأثرة بالتعاليم الدينية ، وبالمسيحية على وجه الخصوص ، وتدعو إلى الضعف والاستسلام . وما كانت حملته على الفلسفات الكبرى إلا لدعوتها إلى مبادئ قريبة من المبادئ الدينية ، كبدء الفضيلة العقلية الخالصة عند سقراط وأفلاطون . فأين آراء فاجنر المحافظة من هذه الثورة العاتية ؟ إن فاجنر ، الذى عبر عن ولائه وإخلاصه للمسيحية تعبيراً صريحاً فى باريسفال ، كان فى واقع الأمر مسيحياً مخلصاً من بداية الأمر : فالو حالات أية واحدة من دراماته الموسيقية ، اوجدت فيها فكرة التكفير والتوبة تلعب دوراً أساسياً — حتى فى خاتم النيباوانجن Niebelungenring التى خاق فيها فاجنر شخصية زيجفريت ، محطم التقاليد النائر — حتى فى هذه الدراما ، يعود فاجنر فى النهاية إلى نغمته المعهودة ، فينادى بالتوبة والخلاص ، ويتوق أخيراً إلى الفناء وإنكار الحياة .

فإذا تركنا أفكار فاجنر جانباً ، وانتقلنا إلى موسيقاه ، لوجدنا نيتشه يوجه إليها هى الأخرى حملة عنيفة ، يمكننا أن نلتمس لها تعليلاً واضحاً من حالة نيتشه الصحية . ويبدو أن موسيقى فاجنر العميقة كانت تسبب له إجهاداً فكرياً عنيفاً ، وكان يحتاج فى تتبعها إلى توتر ذهنى يستهلك من طاقته العقلية قدراً هو أحوج ما يكون إليه . ومن هنا كان نيتشه فى حاجة إلى موسيقى خفيفة راقصة ، تجدد نشاطه وتفكيره ولا تستهلكهما . ولقد صرح نيتشه بذلك حين قال « إن كل ما هو جيد خفيف ، وكل ما هو إلهى يسير على أرجل دقيقة حساسة » . وهذا هو ما وجده نيتشه فى ألحان بيزيه Bizet ، الذى كانت أوبراه المشهورة « كارمن » بمثابة كشف عالم جديد بالنسبة إلى نيتشه . فأين تلك الرقة الرفيعة من تعقد فاجنر الذى أدرك أن موسيقاه لا يمكن أن تأخذ طريقها إلى الأذهان مباشرة ، فأخذ يخرج الكتب واحداً تلو الآخر لتبريرها وشرحها ؟ لقد كان نيتشه ولا شك محباً للحن Mélodie ، وكان يؤثره على التناغم المعقد الذى سيطر على موسيقى فاجنر . كان يريد فى الموسيقى ، كما قال ، شيئاً يمكن تصفيره ، وكان يرى الألمان جميعاً عاجزين فى ميدان اللحن . ولا شك أن أقوال نيتشه فى هذا الصدد

إنما تخضع لمنطق التبرير فحسب ، بدليل ما صرح به في كتابه الأخير من أن مواجهته فن فاجنر بموسيقى يبرزه لا ينبغي أن تؤخذ على محمل الجد . وعلى أية حال ، فقد أراد نيتشه بكل هذا النقد شيئين : أولهما أن يتابع في مجال الموسيقى حملته على فاجنر في مجال الفكر ، إذ كان عدم التوافق في الأفكار هو الأصل ، وثانيهما أن يبرر الضعف الطبيعي الذي انتاب أعصابه ، والذي جعل هضم موسيقى فاجنر أمراً ثقيلاً بالنسبة إليه . ودليل ذلك قوله في كتاب العلم المرح « إن دوافعي ضد موسيقى فاجنر دوافع عضوية . . . فما أشعر به فعلاً عند ما أستمع إلى تلك الموسيقى ، هو العجز عن التنفس بسهولة . ولذا تثور أقلامي وتغضب ، إذ أنها في حاجة إلى الإيقاع والرقص والمشية المنتظمة ، وكل ما ترى إليه من الموسيقى هو قبل كل شيء ذلك الطرب الذي ينبعث من انتظام المشي والخطو والقفز والرقص . وفضلاً عن ذلك ، ألا تحتاج معدني وقلبي ودورتي الدموية وأمعاني بدورها ؟ . . ما الذي يريده جسمي حقاً من كل موسيقى ؟ إنه يريد أن يصبح خفيفاً ، وكأن كل الوظائف الحيوية فيه تزداد سرعة ونشاطاً بفعل إيقاع خفيف جرىء منطلق واثق من نفسه . » وهكذا تنعكس حالة نيتشه الصحية على هذا النقد بوضوح ، ويبدو إشارته لإيقاع بيزيه المنتظم على تناغم فاجنر المعقد أمراً هين التفسير بالنسبة إلى من كانت لديه أدنى فكرة عن وظيفة الإيقاع المنتظم في تخفيف التوتر العصبي . ولعل القارئ قد لاحظ من خلال تطورات تلك العلاقة التي تمثلت فيها أهم وقائع حياة نيتشه ، تردد ظهور تلك الصفة التي قلنا من قبل إنها أهم ما يميز حياته ، وأعني بها تركز هذه الحياة حول المشاكل الفكرية ، واتخاذها عناصرها ومقوماتها كلها من هذه المشاكل . ذلك لأن الخلاف بينه وبين فاجنر - وهو الخلاف الذي كان له أبلغ الأثر في تطور حياته - إنما كان خلافاً حول « أفكار » قبل كل شيء . ولا جدال في أن نيتشه لو وجد لدى فاجنر من الأفكار ما يلائمه . لحقت حملته على موسيقاه إلى حد بعيد .

وتبدو تلك الصفة الأساسية في حياة نيتشه ، أعني سيطرة الأفكار الخالصة لا الواقع العيني . على هذه الحياة سيطرة تامة - تبدو تلك الصفة واضحة في

حملته على فاجنر خلال أعياد بايرويت . لقد كان يطمع من فاجنر في أن يأتيه بالحقيقة كاملة صريحة . كان يريد منه أن يصبح فيلسوفاً ذا دعوة عقاية مثله ، وأن يحارب من أجل الأفكار الجديدة حرباً مباشراً . ولكم كان نيتشه ساذجاً حين تصور أن الفن وسيلة لإثبات فكرة فلسفية بطريقة مباشرة ، وسبيل يكفي وحده لبعث نهضة إنسانية شاملة . إن غاية ما يصل إليه الفنان هو أن يشير من بعيد . ويلمح ، ويرمز . وحين ينقلب الفن إلى خطاب منبرية ذات مدلول مباشر ، فإنه يفقد ماهيته ذاتها ، مهما كان نبل الدعوة التي يدعو إليها . وليس معنى ذلك أن على الفن أن ينطوى على ذاته ، أو يكتفى بالطابع الشكلى الصرف ، ويخضع لهذا الشعار الزائف : الفن لأجل الفن . . . فلكل فنان صادق رسالة ، ولكنه لا يستطيع وحده أن يصلح الناس إصلاحاً شاملاً . أو أن يبعث نهضة جديدة بفنه فحسب . بل كل ما يمكنه أن يفعله هو أن يتصافر مع غيره في مجهود مشترك ، يكون نصيبه منه منحصراً في الحدود التي لا يتعداها التعبير الفنى .

غير أن نيتشه « صدم » حين وجد أن بايرويت لم تكن إلا مسرحاً معتاداً كسائر المسارح ! فما الذى كان ينتظره إذن ؟ أكان يريد لها منبراً يدعو فيه فاجنر إلى الحياة الجديدة ؟ وماذا كان يملك من وسائل لهذه الدعوة ؟ ألم يكن التعبير الموسيقى والشعرى ، في حدود الإمكانيات المسرحية . هو وسيلته الوحيدة من حيث هو فنان ؟ وهل يسمح له واقع هذه الحياة بأن ينتقى مستمعين « مختارين » تتأثر نفوسهم بفنه المتكامل فينتشروا في الأرض ليبشروا بالحياة الجديدة ؟ لا شك أن مطلب نيتشه هذا كان وهماً وخيلاً إن دل على شيء فإنما يدل على أن الفكرة الخالصة ، التي لا تعترف بحدود الواقع ولا تخضع لمقتضياته ، تحتل جميع أركان نفسه ، ومن خلالها وحدها يقوّم العالم ويصدر حكمه على الناس .